مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 23 عدد: 47 السنة: 2019

إعجاز القرآن عند عبد الرحمن الثعالبي من خلال تفسيره الجواهر الحسان

The miracle of the Koran through Abdul Rahman Thaalabi aljawahir alhessan exegesis

د.عبد المطلب بوغرارة[1]
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
abourabab1400@gmail.com

تاريخ الوصول2018/12/27/القبول: 2019/05/27 /النشر على الخط: 2019/06/15
Received: 27/12/2018 / **Accepted**: 27/05/2019 / **Published online** : 15/06/2019

ملخص:

هذا البحث محاولة لبيان جهود عبد الرحمن الثعالبي في قضية إعجاز القرآن الكريم من خلال تفسيره الجواهر الحسان، وقد تناول الثعالبي مسألة إعجاز القرآن في مناسبات متنوعة من تفسيره عند الحديث عن القرآن الكريم وكونه آية النبي عليه السلام التي أوتيها لتكون علامة نبوته، فقد عَـــرَض الثعالبي لتعريف الإعجاز ولبيان الوجوه التي كان بها معجزا مقدما اهم النماذج بذلك مع إيمانه بأن الوجوه أكثر من أن تحصر، وأخير تناول البحث جهود الثعالبي في الدفاع عن القرآن الكريم وعن بلاغته ومميزاته التي كان بها آية تفوق كلَّ الآيات التي أيّد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام.

الكلمات المفتاحية: الثعالبي، إعجاز القرآن، الجواهر الحسان.

Astract:

This research is an attempt to demonstrate the efforts of Abdulrahman al-Tha'alibi in his book (Al Djawahir Al Hissan the argument from this perspective the question of the miracles of the Holy Quran in various occasions of the interpreted when talking about the Qur'an and the fact that any prophet, peace be given to him as a sign of his prophethood, the argument from this perspective to define the miracles to illustrate the faces the choice from alternatives placed before him in advance the most important models do so with the belief that the faces more than that limit, and finally, the efforts of the argument from this perspective in defense of the Holy Qur'an and ditched his strengths and assets, which was no more than all the verses that supported by God to His Messengers, peace be upon them.

key words: Tha'alibi; miracle of the Koran; Al Djawahir Al Hissan.

[1] - المؤلف المرسل: عبد المطلب بوغرارة، الإيميل: abourabab1400@gmail.com

المطلب الأول: تعريف بالمؤلِّف:

(**اسمه ونسبه**): هو: الشيخ الإمام الحجة العالم العامل الزاهد الورع ولي اللَّه الناصح الصالح العارف باللَّه أبو زيد شُهر بالثعالبي، من كبار المفسرين وأعيان الجزائر وعلمائها؛

(**نشأته**): ولد ونشأ بناحية وادي يسَّر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر؛ وتعلم في بجاية وتونس ومصر، ودخل تركيا، ثم حج، وعاد الى تونس سنة 819هـ، ومنها إلى الجزائر.

(**وظائفه**): وولي القضاء على غير رضى منه، ثم خلع نفسه.

(**شيوخه**): الإمام الحافظ أبي الحسن علي ابن عثمان المكلاتي والشيخ الفقيه المحقق أبي الربيع سليمان بن الحسن وأبي الحسن علي بن محمد البليليتي، وعلي بن موسى، والإمام العلامة أبي العباس النقاوسي، أبي مهدي عيسى الغُبْريني والشيخ الجامع بين علمي المنقول والمعقول أبو عبد اللَّه الأبي وأبو القاسم البُرْزُلي وأبو يوسف يعقوب الزغبي ، أبو عبد الله البساطي، وولي الدين العراقي، وأبو عبد اللَّه القلْشاني، البرزلي أخذ عنه البخاري إلا يسيراً، ابن مرزوق أخذ عنه كثيرًا وسمع عليه الموطأ بقراءة الفقيه أبي حفص عمر القلشاني.

ومن شيوخه الشيخ المحدث عبد الواحد الغرياني وحافظ المغرب أبو القاسم العبدوسي وابن قرشية.

(**تلاميذه**): أخذ عنه جماعة كالشيخ العالم محمد بن محمد بن مرزوق الكفيف والإمام السنوسي وأخيه لأمه علي التالوني والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي.

(**مؤلفاته**): له أكثر من تسعين كتابا منها: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن " في أربعة أجزاء مذيلا بمعجم لغوي لشرح غريبه، و"روضة الأنوار ونزهة الأخيار " في الفقه، قال صاحب نيل الابتهاج: " وهو قدر (المدونة) فيه لباب من نحو ستين من أمهات الدواوين المعتمدة وهو خزانة كتب لمن حصله ". و"كتاب الأنوار في آيات النبي المختار" و"جامح الهمم في أخبار الأمم " في سفرين ضخمين، و "جامع الأمهات في أحكام العبادات " في سفر ضخم، و "رياض الصالحين " و"الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز " و"الارشاد في مصالح العباد " و "العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة" جزءان، و "إرشاد السالك" جزء صغير، و"الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة " في جزء كبير، و "التقاط الدرر"، و"الدر الفائق" في الأذكار والدعوات، و"المختار من الجوامع في محاذاة الدرر اللوامع" في القراءات، و"رياض الأنس " في الرقائق، و "جامع الخيرات " و "نور الأنوار ومصباح الظلام " و "كتاب الإرشاد " و" كتاب النصائح وجامع الفوائد " و"تحفة الإخوان في إعراب بعض آي من القرآن " و "شرح" على مختصر خليل بن اسحاق، و "الأنوار المضيئة" أربعون حديثا، و "شرح" على مختصر ابن الحاجب الفرعي، في سفرين ضخمين، و"الدرر اللوامع في قراءة نافع " و"قطب العارفين " في التصوف، وغير ذلك.

(**وفاته**): توفي في 33 رمضان المبارك سنة 875هـ ودفن بجبانة الطلبة في مدينة الجزائر[1]

(**كلام العلماء عنه**)[1]: لقد عرف العلماء للشيخ عبد الرحمن الثعالبي مكانته العلمية، فذكروا في ترجمته ما يدلُّ على مكانته العلمية، ومن هؤلاء:

1 – من كتاب مُعجَمُ أعلام الجزائر – مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر، لعادل نويهض، (ص 90–91)، وينظر في ترجمته: نيل الابتهاج بتطْريز الديباج، ص: (257– 261)، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، (1/ ص: 276)، الأعلام للزركلي (331/3).

قال السخاوي: كان إمامًا علامة مصنفًا اختصر تفسير ابن عطية في جزأين وشرح ابن الحاجب الفرعي في جزأين وعمل في الوعظ والرقائق وغيرها- اهـ.

قال الشيخ زروق: شيخنا الفقيه الصالح والديا عليه أغلب من العلم، يتحرى في النقل أتم التحري وكان لا يستوفيه في بعض المواضع- اهـ.

قال ابن سلامة البكري: كان شيخنا الثعالبي رجلًا صالحًا زاهدًا عالما عارفًا وليًا من أكابر العلماء، له تآليف جمة أعطاني نسخة من تفسير الجواهر لا بشراء ولا عوض، عاوضه اللّه بالجنة، وقال غيره: سيدنا ووسيلتنا لربنا الإمام الولي العارف باللّه- اهـ.

المطلب الثاني : تعريف بالمؤلَّف.

يعدُّ تفسير عبد الرحمن الثعالبي من التفاسير المختصرة المهمة، سيما أنه قد استقى مجمله من تفسير ابن عطية رحمه الله وناهيك به تفسيرا قد نوه به العلماء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عنه: (وَتَفْسِيرُ ابْنِ عَطِيَّةَ خَيْرٌ مِنْ تَفْسِيرِ الزَّمَخْشَرِيِّ وَأَصَحُّ نَقْلًا وَبَحْثًا وَأَبْعَدُ عَنْ الْبِدَعِ وَإِنْ اشْتَمَلَ عَلَى بَعْضِهَا بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ بِكَثِيرٍ بَلْ لَعَلَّهُ أَرْجَحُ هَذِهِ التَّفَاسِيرِ لَكِنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ جَرِيرٍ أَصَحُّ مِنْ هَذِهِ كُلِّهَا)[2].

يقول الثعالبي عن تفسيره: (قد يَسَّر اللَّهُ عز وجلَّ في تحرير هذا المختصر، وقد أودعته بحمد الله جزيلا من الدرر، قد استوعبت فيه بحمد اللَّه مُهِمَّاتِ ابْنِ عطيَّةَ، وزدته فوائدَ جليلةً من غيره، وليس الخَبَرُ كالْعِيَانِ، تَوَخَّيْتُ فيه بحمد اللَّه الصَّوَاب وجعلته ذخيرةً عند اللَّه لِيَوْمِ المآبِ، لا يَسْتَغْنِي عنه المُنْتَهِي وفيه كفايةٌ لِلْمُبْتَدي، يستغني به عن المطَوَّلاَت، إذْ قد حَصَّل منها لُبَابَهَا وكَشَفَ عن الحقائقِ حِجَابَهَا)[3].

طبعاته:

وتفسيره المسمى "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" طبع أكثر من مرة فهو مطبوع في الجزائر سنة1327 طبعة قديمة في المطبعة الثعالبية دون عناية أو تحقيق، وله معجم مختصر في شرح غريب بعض ألفاظ القرآن طبع بآخر التفسير، وله طبعة أخرى قديمة بعناية محمد بن المصطفى ابن الخوجة بالجزائر سنة 1905م، وله ثلاث طبعات حديثة:

الأولى: بتحقيق عمار الطالبي – المؤسسة الوطنية للكتاب،

والثانية: بتحقيق محمد الفاضلي – المكتبة العصرية – بيروت سنة 1417هـ،

والثالثة: وهي من آخر طبعاته طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت عام: 1418 هـ، حققها كلٌّ من الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود على أربع نسخ خطية، وشارك في التحقيق: الأستاذ الدكتور عبد الفتّاح بوسنة.

دراسات حول التفسير :

لقي تفسير الإمام الثعالبي عناية من قبل الباحثين، فأجروا عنه دراسات متنوعة منها:

---

[1] – الأعلام للزركلي (331/3) ، معجم أعلام الجزائر (ص: 90-91)، نيل الابتهاج بتطْريز الديباج، ص: (257- 261)، معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، (1/ ص: 276).

2 – مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (13/ 388).

[3] – الجواهر الحسان للثعالبي، (4/ 158).

01/ دراسة علمية بعنوان: "**عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير**" كتبها عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي، وهي رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة بإشراف د. عبد الفتاح سلامة بالجامعة الإسلامية سنة 1405هـ.

قال صاحبها عن التفسير: "جاء تفسير الثعالبي سديدا في منهجه وعذوبة مورده بعيدا عن الحشو والتطويل وفضول الكلام، ويعد مرجعا مهما في بابه لأنه يعتبر عصارة تفسير ابن عطية الذي يعتبره ابن خلدون عصارة التفاسير المتقدمة عليه، فقام إلى تفسير ابن عطية ونحى منه وفرة وفيرة من الأقوال المتشعبة والاختلافات الكثيرة والروايات المتعددة واختار منها ما هو أقرب إلى الروح القرآنية السمحة... وهو بهذا يطمع أن ينتفع بذلك جمهرة كبيرة من العامة والخاصة كما نوه بذلك في مقدمة تفسيره وكان حريصا أثناء اختصاره لتفسير ابن عطية على تنقية الآراء وعلى إبقاء الطابع العام كما هو دون تغيير أو تبديل حتى تبقى شخصية ابن عطية ماثلة واضحة جلية إلا أنه أحيانا كانت تجذبه العاطفة الدينية كلما سنحت له الفرصة فيطلق لقلمه العنان في سرد الأحاديث والأقوال المتعلقة بالترغيب والترهيب والتذكير بأمور الآخرة والتزهيد في الدنيا والتقليل من شأنها) .

02/ ومن الدراسات أيضا دراسة بعنوان: توجيه الثعالبي للقراءات القرآنية من خلال تفسيره " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" دراسة استقرائية تحليلية، لصاحبها: فريد لوبار تحت إشراف الأستاذ : لخضر حداد، وهي عبارة عن رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير بجامعة الجزائر 01، كلية العلوم الإسلامية، قسم: اللغة والحضارة العربية الإسلامية، العام الدراسي: 2015-2016، بعد أن مهد صاحبها في فصله النظري فعرف بالثعالبي وذكر حياته الشخصية والعلمية وآثاره والتعريف بتفسيره خاصة، قام في الفصل التطبيقي ببيان منهجه في توجيه القراءات وطريقته في ذلك وأن التوجيه كان عنده بالأثر وباللغة وبالتفسير كذلك، وذكر مراجعه في ذلك.

03/ عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير، دراسة رمضان يخلف: وهي رسالة ماجستير بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، عام: 1992م.

04/ الشيخ عبد الرحمن الثعالبي وآراؤه الاعتقادية من خلال تفسيره الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لعبد الرزاق دحمون.

05/ التفسير الصوفي للشيخ عبد الرحمن الثعالبي لعبد اللطيف عبادة

06/ مقال علمي بعنوان: منهج الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي في التعامل مع الإسرائيليات من خلال تفسيره الجواهر الحسان، لنذير حمادو.

07/ منهج الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في تعامله مع المرويات من خلال تفسيره – الجواهر الحسان –، لعبد المجيد بيرم، مجلة الإحياء جامعة باتنة، المجلد 14, العدد 1، الصفحة 181-190

وهناك دراسة على الشابكة في ملتقى أهل الحديث قدمها ابن عبد الوهاب السالمي عرض فيها للحديث عن منهج الثعالبي في تفسيره إجمالا وتفصيلا، وذكر موقفه من الكثير من قضايا علوم القرآن[1].

وأما المقالات في المجالات والدوريات فهي أكثر من أن تحصى.

المطلب الثالث: قضايا بين يدي إعجاز القرآن الكريم

1 – ينظر الدراسة على الرابط التالي:
https://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=20726، بتاريخ: 01-03-2003م.

قضية إعجاز القرآن الكريم لها تعلق بجملة من القضايا العلمية التي تُسهم في بيان بعض ما يشكل منها لذلك تجد كثيرا من العلماء في حديثه عن إعجاز القرآن الكريم يستعينون بها لأجل إيضاح قضايا الإعجاز، ومن ذلكم:

أولا: البيان عند العرب قبل نزول القرآن الكريم

لقد عرفت عادة الله سبحانه وتعالى في إرساله الرسل عليهم السلام وتأييدهم بالآيات، أن يجعلها سبحانه من جنس ما تفوق فيه أقوام الأنبياء كما هو جليٌّ في آية عيسى وآية موسى وآية النبي محمد عليهم صلاة الله وسلامه، فكانت كل آية ظاهرة في إعجاز الأقوام، فالعرب الأمة التي تميزت بالبيان الذي لا يطمع طامع في أن يلحق بها في ذلك، وقد انتبه الثعالبي لهذه المسألة في أشار إليها في تفسير قوله عز وجل: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... " فقال: "الآية مخاطبةٌ للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديدِ النعمة عَلَيْهِمْ إِذْ جاءَهم بلسانِهِمْ، وبما يفهمونه منَ الأَغراض والفصاحةِ، وشُرِّفوا به غَابِرَ الدهْرِ"[1].

كما أشار إلى حادثة النبي صلى الله عليه وسلم مع عُتبة بن ربيعة، فقد رُوِيَ أَنَّ عُتْبَةَ بْنُ رَبِيعَةَ ذَهَبَ إِلَى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ليحْتَجَّ عَلَيْهِ، وَيُبَيِّنَ لَهُ أَمْرُ مُخَالَفَتِهِ لِقَوْمِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ عُتْبَةُ مِنْ كَلاَمِهِ، قَالَ النَّبِيُّ صلّى الله عليه وسلّم: «بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرَّحِيمِ» : حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ إلى قوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ [السجدة: 13] فَأُرْعِدَ الشَّيْخُ، وقَفَّ شَعْرُهُ، وأَمْسَكَ على فَمِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يُمْسِكَ «1» ، وقَالَ حِينَ فَارَقَهُ: وَاللَّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ شَيْئاً مَا هُوَ بالشِّعْرِ، وَلاَ هُوَ بِالكَهَانَةِ، وَلاَ هُوَ بِالسِّحْرِ، ولَقَدْ ظننت أنّ صاعقة العذاب على رأسي[2].

وعند تفسير قول الله سبحانه وتعالى مخبراً عن الوليد: (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ) الآية، رَوَى جمهورٌ من المفسرينَ: أن الوليدَ سَمِعَ من القرآن ما أَعْجَبَه وَمَدحَه، ثم سمِعَ كذلك مراراً، حتى كَادَ أَنْ يُقَارِبَ الإِسْلامِ، وقال: واللَّه لَقَدْ سمعتُ من محمدٍ كلاماً مَا هُو مِنْ كلامِ الإِنْسِ، ولا هو مِنْ كَلامِ الجنِّ، إنَّ له الحلاوة، وإنَّ عليه لَطَلاَوَةً، وإنَّ أَعْلاَهُ لمثمرٌ، وإنَّ أَسْفَلَه لَمُغْدِقٌ، وإنَّه يَعْلُو، وَمَا يُعْلَى، فقالتْ قريشٌ: صَبَأَ الوليدُ واللَّه لتصبأَنَّ قريشٌ، فقال أبو جهل: أنا أَكْفِيكُمُوه فَحاجَّه أبو جهل وجماعة حتَى غَضِبَ الوليدُ، وقال: تَزْعُمُون أَنَّ محمداً مجنُونٌ، فَهَلْ رأيتمُوه يُخْنَقُ قَط؟ قالوا: لا، قال: تزعمُون أنه شاعر، فهل رأيتموه يَنْطِق بشعرٍ قط؟ قالوا: لا، قال: تَزْعَمُونَ أَنّه كاهنٌ، فهل رأيتموه يتكهن قط؟ قالوا لا، قال: تَزْعمُونَ أَنَّه كذابٌ، فَهَلْ جَرَّبْتُمْ عليه شيئاً من الكذبِ قط؟ قالوا: لا، وكانوا يُسمُّونه قبلَ النبوةِ الأَمِينُ لِصِدْقِهِ، فَقَالَتْ قريش: ما عندَك فيه؟ فتفكَّرَ في نفسه، فقال: ما أرى فيه شيئاً مما ذكرتمُوه فقالوا: هو ساحرٌ، فقال: أما هذا فَيُشْبِه، وألفاظ الرواة هنا مُتَقَارِبَة المعاني مِنْ رواية الزهري وغيره[3].

فهذا الحوار بين الوليد ورؤوس قريش يُظهر ما كان عليه العرب من تذوق للبيان، مما أدى إلى اعترافهم ولو فيما بينهم بتفوق القرآن الكريم عن الكلام العربي جميعا الأمر الذي جعل العرب لا يجرؤون على الاستجابة لتحدي القرآن الكريم، لعلمهم أنهم لا قِبَلَ لهم بذلك.

ثانيا: فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم:

أما ما يتعلق بفصاحة النبي صلى الله عليه وسلم، فإنها بالمحل الذي يجهل وإن كانت دون بلاغة القرآن الكريم، ولكنها أكبر ما يكون من بلاغة البشر قاطبة، وقد أشاد الثعالبي ببلاغة النبوية لما تحدث عن تفسير قول الله سبحانه (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

[1] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 221).
[2] – المصدر نفسه، (4/ 111).
[3] – الجواهر الحسان للثعالبي، (4/ 509).

...) الآية. ت: وقد فعل صلّى الله عليه وسلّم ذلك، فبيَّن عن اللَّهِ، وأوْضَح، وقد أوتي صلّى الله عليه وسلّم جوامعَ الكَلِم، فأعرب عن دين اللَّهِ، وأفصح، ولنذكُر الآن طَرَفاً من حِكَمِهِ، وفصيحِ كلامِهِ بحذف أسانيده.

ثم نقل عن عِياضٍ في «شِفَاهُ» قوله: "وأما كلامه صلّى الله عليه وسلّم المعتادُ، وفصاحَتُه المعلومةُ، وجوامُع كَلِمِهِ، وحِكَمُه المأثورةُ، فمنها ما لا يُوَازَى فصاحةً، ولا يبارَى بلاغةً كقوله: «المسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ» ، وقوله: «النّاس كأسنان المشط»، «والمرء مَعَ مَنْ أَحَبَّ»، و «لاَ خَيْرٍ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَى لَكَ مَا تَرَى لَهُ»، و «النَّاسُ مَعَادِنٌ»، و «مَا هَلَكَ امرؤ عَرَفَ قَدْرَهُ»، و «المسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»، و «هو بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَكَلَّم»، و «رَحِمَ اللَّهُ عَبْداً قَالَ خَيْراً فَغَنِمَ، أَوْ سَكَتَ عَنْ شرّ فسلم»، وقوله: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ»، و «أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»، و «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ منّي مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا الموطّئون أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»، وقوله: «لَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ، وَيَبْخَلُ بِمَا لاَ يُعْنِيهِ» ، وقوله: «ذُو الوَجْهَيْنِ لاَ يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً»؛ وَنَهْيُهُ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ، وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المالِ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ، وَعُقُوقِ الأُمَّهَاتِ، وَوَأْدِ البَنَاتِ، وقوله: «اتق اللَّهَ حَيْثُ كُنْتَ، وأتبع السّيّئة الحسنة تمحها، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حسنٍ»، و «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُها»، وقوله: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَّا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَّا»، وقوله: «الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَة»، وقولِهِ في بَعْضِ دعائه: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي، وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي، وَتُلِمُّ بِهَا شَعْثِي، وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي، وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي، وتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي، وَتُلْهِمُنِي بِهَا رَشَدِي، وَتُرَدُّ بِهَا أُلْفَتِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ، اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الفَوْزَ فِي القَضَاءِ، وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ، وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ، وَالنَّصْرَ عَلَى الأَعْدَاءِ»، إلى غَيْرِ ذلكَ مِنْ بيانِهِ، وحُسْنِ كلامه ممَّا روته الكافَّة مما لا يُقَاسُ به غيره، وحاز فيه سبقاً لا يُقْدَرُ قَدْرُهُ كقوله: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ» في أحواتها مما يدرك الناظِرُ العَجَبَ في مضمَّنها، ويذهَبُ به الفكْرُ في أداني حكمها، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ، وَنَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ»، فجمع اللَّه له بذلك قُوَّة عارضَةِ البادية وجزالَتَها، وَنَصَاعَةَ ألفاظِ الحاضِرَةِ وَرَوْنَقَ كلامِهَا، إلى التأييد الإلهي الذي مَدَدُهُ الوَحْي، الذي لا يحيطُ بعلمه بَشَرِيّ. انتهى. وبالجملة فليس بَعْدَ بيان اللَّه ورسُولِهِ بيانٌ لمن عَمَّر اللَّهُ قلْبَه بالإيمان"[1].

وهذا غيضٌ من فيضٍ من بلاغته صلى الله عليه وسلم.

ثالثا: الآيات القرآنية الفائقة في البلاغة[2]

ومن جهود الثعالبي في إظهار بلاغة القرآن الكريم أنه اهتم للآيات ذات البلاغة الفائقة لتكون نماذج لبلاغة القرآن الكريم، ومن ذلكم ما جاء في تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا): لما كان هذا القولُ في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهَة الَّتي هي عن الله عز وجلّ ليكون ذلك مِنْها على تلقِّي النعمة مِنْ عنده لا رَبَّ غيره، ولو كان هذا القولُ في تعديد ذَنْبٍ، لكان الابتداء بالجهة التي هي على المذنب، كما قال عز وجل: (فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ): [الصف: 5]، ليكون ذلك أشدَّ تقريراً للذنْب عليهم، وهذا مِنْ فصاحة القُرآن وبديعِ نظمِهِ ومُعْجِزِ اتساقه"[3].

---

[1] – المصدر نفسه، (2/427-428).

[2] - التفاوت في بلاغة القرآن الكريم للعلماء في ذلك آراء متباينة، ولعل الذي ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام أن التفاوت في بلاغة القرآن كائن ولكن ذلك بالنسبة لإدراكنا الواقع لبلاغة الآيات القرآن، فيظهر لنا تفاوت بين الآيات ولكن ذلك بالنسبة لادراكنا فقط.

[3] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 215).

ومن النماذج أيضا قول الثعالبي: "وعبارة القُرآن في سوق هذه المـعاني تفُوتُ كلَّ تفسيرٍ براعةً وإيجازاً ووضوحاً، وحَكَمَتْ هذه الآيةُ بأنه ليس بَيْنَ الحَقِّ والضلال منزلةٌ ثالثةٌ في هذه المسألة التي هي توحيدُ اللَّه تعالَى، وكذلك هو الأمر في نظائرها مِنْ مسائل الأصول التي الحَقُّ فيها في طَرَفٍ واحدٍ لأن الكلام فيها إنما في تقرير وجودِ ذاتٍ كَيْفَ هِيَ، وذلك بخلافِ مسائِلِ الفُرُوع التي قال اللَّه تعالَى فيها: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجاً [المائدة: 48] "[1].

ومن الآية الفائقة البلاغة عز وجل: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ...) الآية؛ يقول عنها الثعالبي:" في هذه الألفاظ إيجازٌ وإحالةٌ على ذِهْنِ السَّامع لأن العبرة في أنَّ الليل مُظْلِمٌ يُسكن فيه، والنَّهار مُبْصِر يُتصرَّف فيه، فذكر طرفاً من هذا وطرفاً من الجهة الثانية، ودلَّ المذكوران على المتروكين[2].

ومن بديع تعبيرات القرآن ما جاء في قوله تعالى (وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ والغربيُّ)، فقد نقل الثعالبي عن السهيلي قوله: "وجانبُ الغَرْبِي هُوَ جانبُ الطُّورِ الأيمنِ، فحينَ ذَكَرَ سبحانَه نداءَه لِموسى قال: وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ [مريم: 52] وحين نفى عن محمد صلى الله عليه وسلّم أن يكون بذلك الجانبِ قال: وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ والغربيُّ: هو الأيمنُ، وبين اللفظينِ في ذكر المقَامَيْنِ ما لا يخفى في حُسْنِ العبارةِ وبديعِ الفَصَاحَةِ والبلاغةَ فإن محمداً عليه السلام لا يقالُ له: ما كنت بالجانب الأيمنِ فإنَّه لَمْ يَزَلْ بالجَانِبِ الأيْمَنِ مُذْ كانَ فِي ظَهْرِ آدم عليه السلامُ، انتهى[3]. وهذا في غاية الحسن من تخريج كلام الله عز وجل في مقام النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ومن عوائد القرآن في الإيجاز ما نبه إليه الثعالبي بنقله عن الزجاج في قوله تعالى (عَمَّ يَتَساءَلُونَ):" وقال الزجاج: الكلام تامٌّ في قوله: (عَمَّ يَتَساءَلُونَ)؛ ثُمَّ كان مقتضَى القولِ أن يجيبَ مجيبٌ فيقول: يتساءلونَ عن النبأ العظيم، وله أمثلة في القرآن اقتضَاها إيجازُ القرآن وبلاغتُه[4].

ومن المظاهر التي اكتشفها الثعالبي لتكون مثالا على علو فصاحة القرآن الكريم، مسألة التكرار وترك التكرار في قصص القرآن الكريم، فإن كل ذلك جاري على البلاغة العالية التي هي إعجاز فقال في حديثه عن سورة يوسف عليه السلام: " وسورة يوسف لم يتكرّر من معانيها في القرآن شيء كما تكرّرت قصص الأنبياء، ففيها حجّة على من اعترض بأن الفصاحة تمكّنت بترداد القول، وفي تلك القصص حجّة على من قال في هذه: لو كرّرت، لفترت فصاحتها"[5].

فهذه بعض النماذج من جهود الثعالبي في العناية ببلاغة القرآن الكريم وإيقاف القارئ على سمو البيان القرآني الذي تجلى في آياته البينات.

المطلب الرابع: قضايا إعجاز القرآن الكريم في تفسير الثعالبي

[1] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 236).
[2] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 248).
[3] – الجواهر (277/3)
[4] – الجواهر (4/ 545)
[5] – الجواهر، (2/ 305).

لا تخلو في غالب الأمر تفاسير القرآن من إثارة مسائل إعجاز القرآن الكريم، سواءٌ في مقدماتها كما صنع الطبري، وابن عاشور وغيرهما، أو في ثنايا التفسير خاصة عند آيات التحدي والإخبار بالغيب وتميز البلاغة القرآنية ونحو ذلك من المواطن التي يجعل منها أغلب المفسرين بابا للولوج في قضايا إعجاز القرآن الكريم.

والثعالبي كغيره من المفسرين لم يترك الفرصة تفوته في هذه المواضع للحديث عن إعجاز القرآن الكريم، فكان من القضايا التي عرض لها:

أولا: معنى الإعجاز

أما مسألة إعجاز القرآن الكريم فإن الثعالبي في تفسيره قد أولاها اهتماما من وجوه عدة على النحو الآتي:

معنى إعجاز القرآن القرآن الكريم من جهة اللغة والاصطلاح، فقال في بيان المعنى اللغوي للإعجاز:

و «المُعْجِزُ» : الذاهبُ في الأَرض الذي يُعْجَزُ طالِبَهُ فلا يَقْدِرُ عليه[1]، وأما المعنى الاصطلاحي فقد اعتنى الثعالبي ببيان قيود التعريف الذي يذكره المتكلمون عن الإعجاز[2]

01/ قيد التحدي:

تحدث الثعالبي عن قيد التحدي الذي يعده المتكلمون من القيود المهمة في تعريف إعجاز القرآن ومن ذلكم ما كان من النبي عليه الصلاة والسلام من تحدي أهل الكتاب بتمني الموت فقال: " وهذه آية بيّنة أعطاها الله رسوله محمّدا صلّى الله عليه وسلم لأن اليهود قالَتْ: (نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) **[المائدة: 18]**، وشبه ذلك من القول، فأمر اللَّه نبيَّه أن يدعوهم إلى تمنِّي الموت، وأن يعلمهم أنه من تمنَّاه منهم مات، ففعل النبيّ صلّى الله عليه وسلم ذلك، فعلموا صدْقَهُ، فَأَحْجَمُوا عن تمنِّيه فَرَقاً من اللَّه لِقبحِ أفعالهم ومعرفتهم بكذبِهم، وحرصاً منهم على الحَيَاة، وقيل: إن اللَّه تعالى منعهم من التمنِّي، وقصرهم على الإمساك عنه لتظهر الآية لنبيّه صلّى الله عليه وسلم.

ثم نقل عن القاضي عياض قوله: "ومن الوجوه البَيِّنة في إعجاز القُرْآن آيٌ وردتْ بتعجيز قومٍ في قضايا، وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فَعَلُوا ولا قَدَرُوا على ذلك كقوله تعالى لليهود: (قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً)... الآية: قال أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَاج في هذه الآية: أعظم حجة، وأظهر دلالة على صحَّة الرسالة لأنهُ قال لهم: (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ وأعلمهم أنهم لَنْ يتمنَّوْهُ أبداً، فلم يتمنَّهُ وَاحِدٌ منهم، وعن النبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم «والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يقولها رجُلٌ منهم إلا غصَّ بِرِيقِهِ»، يعني: يموتُ مكانه، قال أبو محمَّدٍ الأصيليُّ: من أَعجب أمرهم أنَّهُ لا تُوجَدُ منهم جماعةٌ ولا واحدٌ من يومِ أَمَرَ اللَّهُ تعالى بذلك نبيَّهُ يقدَّم عليه، ولا يجيب إليه، وهذا موجودٌ مشاهَدٌ لمن أراد أن يمتحنه منهم» "[3].

وعن قوله تعالى: " (فَكِيدُونِي جَمِيعاً): أي: أنتم وأصنامكم، ويذكر أن هذه كَانَتْ له عليه السلام معجزةً، وذلك أنَّه حرَّض جماعتهم عَلَيْه مع انفراده وقوَّتهم وكُفْرهم، فلم يقدروا على نيله بسوء، وتُنْظِرُونِ: معناه: تؤخِّروني، أيْ: عاجلوني بما قَدَرْتم عليه"[4]. وفي

[1] الجواهر الحسان للثعالبي، (216/4).ي

[2] – الْمُعْجِزَةَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ مقرون بالتحدي سالم عن الْمُعَارَضَةِ وَهِيَ إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ، [الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: 4/ص3]

[3] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (1/ ص 113)، وينظر الشفا للقاضي عياض، (1/ 526-527)

[4] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 283).

ذلك بيان أن من حقيقة المعجزة أن يصحبها التحدي كما في هذه الموضع وغيره من مواضع الحديث عن معجزات الأنبياء عليهم السلام.

وفي حديث الثعالبي عن آية وقوله سبحانه: (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ): تقدَّم تفسير نظيرها، وقال بعضُ الناس: هذه الآية متقدِّمة على التي في يُونُسَ إِذْ لا يصحُّ أَنْ يعجزوا في واحدةٍ، ثم يكلَّفوا عشراً[1]، وفي ذلك أن التحدي بالقرآن الكريم وقع على مراحل مختلفة وبأقدار من القرآن متباينة بدأت بمثل القرآن الكريم ثم انتهت إلى السورة الواحدة منه.

02/ قيد خرق العادة

كذلك من القيود التي أوردها المتكلمون في حد إعجاز القرآن الكريم قيد خرق العادة وقد أشار الثعالبي إلى هذا القيد في حديث عن آية صالح عليه السلام فقال في تفسير قوله تعالى:" و ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: ذاتُ إبصار وهي عبارةٌ عن بيان أمْر الناقة، ووضوح إعجازها، وقوله: فَظَلَمُوا بِها، أي: بِعَقْرِها، وبالكُفْر في أمرِها، ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآياتِ غيرِ المـُقْتَرَحةِ تخويفاً للعباد، وهي آيات معها إمهال، فمن ذلك الكُسُوفُ والرعْدُ والزلزلةُ وقَوْسُ قُزَحَ، وغَيْرُ ذلك، وآيات اللَّه المعَتبرُ بها ثلاثَةُ أقْسَامٍ:

1/ فقسمٌ عامٌّ في كل شيء، إذ حيث ما وضَعْتَ نَظَرَك، وجدتَّ آيةً، وهنا فِكْرة للعلماء،

2/ وقِسْمٌ معتاد غالباً كالكسوف ونحوه، وهنا فِكْرَة الجَهَلَةِ،

3/ وقسْمٌ خَارِقٌ للعادة، وقد انقضى بانقضاء النبوَّة، وإنما يعتبر به، توهُّماً لما سلف منه"[2].

03/ قيد التعجيز

وقد تحدث الثعالبي عن هذا القيد في تفسير الآية من سورة يونس عليه السلام : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)؛ فقال: "سببُ هذه الآية أنَّ جماعة من قريش قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لَوْ جِئْتَنَا بآيةٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ هذا القرآن، فإنا نَقْدِرُ نَحنُ عَلَى المجِيءِ بمثله، فنزلَتْ هذه الآية المصرِّحة بالتعجيز لجميع الخلائق"[3].

كما أشار إلى ذلك في قوله سبحانه (وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ) فقال: "الضمير في: قالُوا لقريش ولبعض اليهود لأنهم كانوا يعلِّمون قريشاً مثل هذه الحجة على ما مر في غير ما موضع. ثم احتج عليهم في اقتراحهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات ومعجز للجن والإنس فقال سبحانه: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ ... الآية.[4]، ثم عَجَّزَهُمْ سبحانه بقوله: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ والضمير في مِثْلِهِ عائد على القرآن[5].

وعندما بلغ الثعالبي قوله سبحانه: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) **[الإسراء 88]** ، أورد سبب نزول هذه الآية وذكر ما فيها من تصريح بالتعجيز، فقال: "سببُ هذه الآية أنَّ جماعة من قريش قالوا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم: لَوْ جِئْتَنَا بآيةٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ هذا القرآن، فإنا نَقْدِرُ نَحنُ عَلَى المجِيءِ بمثله، فنزلَتْ هذه

[1] – المصدر نفسه، (2/ 2269).
[2] – المصدر نفسه، (2/ 482)
[3] – المصدر نفسه، (2/ 497).
[4] – المصدر نفسه، (3/ 302)
[5] – المصدر نفسه، (4/ 298)

الآية المصرِّحة بالتعجيز لجميع الخلائق"[1]، فذكر تصريح هذه الآية بقيد التعجيز، الذي يعدُّ مظهرا جليا من مظاهر إعجاز القرآن الكريم.

المطلب الخامس: أوجه الإعجاز:

ومن قضايا الإعجاز المهمة قضية بيان الأوجه التي كان بها القرآن الكريم معجزا، فإن العلماء قد أولوا هذه القضية مزيدا من البحث، فمنهم من يجعل وجوه الإعجاز تقف إلى حدٍّ ويذكر ما تبين له منها، ومنها من يجعلها لا تقع على عدّ وإنما يجتهد في إحصاء الوجوه التي بلغ إليها اجتهاده ثم يذكر أن إحصاء ذلك شيء غير متاح للناس[2].

وقد ساهم عبد الرحمن الثعالبي في تفسيره ببيان أوجهٍ من إعجاز القرآن الكريم فمن ذلكم:

وجه الإعجاز من جهة الإخبار بالغيوب؛ وكون ما جاء به من القرآن في غاية الطول؛ وأنه صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب:

في قوله تعالى: (وَما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ) قال الثعالبي" يُشْبِهُ أَن يُرَادَ بهذا الانحناءِ كفارُ قريش، ثم بيَّن تَعَالى الحجةَ وأوضحَ البرهانَ: أَن مما يقوى أَنَّ نزولَ هذا القرآن مِن عِنْدِ الله أن محمداً- عليه السلام- جاء به في غاية الإعجاز والطُّول والتَّضَمُنِ للغيوب، وغير ذلك؟ وهو أمِّيَّ لا يقرأ ولا يكتب ولا يتلو كتاباً ولا يخط حروفاً ولا سبيلَ له إلى ذلك بالتعلم، ولو كان ممن يقرأ أو يخط، لارتاب المبطلون، وكان لهم في ارتيابهم مُعَلَّق، وأما ارتيابُهم مع وضوحِ هذهِ الحجةِ فظاهرٌ فساده"[3].

وهذه القطعة من تفسير الثعالبي احتوت على بيان جملة من وجوه إعجاز القرآن الكريم والتي منها:

مجيء القرآن الكريم بالخبر بالغيوب السابقة الصادقة التي لا تعلم إلا من طريق تعلمها أو الوحي بها، والإخبار بالغيوب في القرآن الكريم لا تكاد تخلو منه سور القرآن الكريم، فقصص الأنبياء التي هي ثلث القرآن الكريم كلها من هذا الباب، ولا يكاد أحد من العلماء يترك ذكر هذا الوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، ولكن ربما من يعترض على هذا الوجه من جهة أنه لا يوجد في القرآن الكريم كلِّه، ومع أن ذلك حقٌّ ولكن لا ينبغي ترك ذكر ذلك في أنواع وجوه إعجاز القرآن الكريم، لأن العلماء لم يشترطوا أن يكون الوجه من الإعجاز المذكور مطردا في كل القرآن الكريم.

كذلك فيها أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم كون الذي جاء به وهو النبي صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ومع ذلك جاء بهذه العلوم التي حواها القرآن الكريم بالإضافة إلى التشريعات المحكمة والأخلاق الفاضلة

وقد نقل الثعالبي في مقام آخر عن الطبري قوله: " وفي أخبار القرآن على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلم بهذه المغيَّبات التي لم تكُنْ من علم العَرَب، ولا وقعتْ إلا في خفيِّ علْمِ بني إسرائيل دليلٌ واضحٌ عند بني إسرائيل، وقائم عليهم بنبوءة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم"[4].

---

[1] – الجواهر (3/ 496)

2 – وقد ذكر السيوطي في الإتقان مذاهب الناس في ذلك سواء من حصر الوجوه أو من لا يرى حصرها كما نقل ابْن سُرَاقَةَ قوله: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي وَجْهِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ فَذَكَرُوا فِي ذَلِكَ وُجُوهًا كَثِيرَةً كُلُّهَا حِكْمَةٌ وَصَوَابٌ وَمَا بَلَغُوا فِي وُجُوهِ إِعْجَازِهِ جُزْءًا وَاحِدًا مِنْ عُشْرِ مِعْشَارِهِ، ينظر الإتقان للسيوطي: [4/ ص 7- 20] فقد استوفى مذاهب العلماء في ذلك وذكر منها نماذج كثيرة

[3] – الجواهر الحسان للثعالبي، (3/ص 302)

[4] – المصدر نفسه، (1/ص 81).

كما ذكر الثعالبي كثير من الفروع التي تفرعت عن هذا الوجه " الأخبار بالغيوب" في مناسبات عديدة، فجعلها نماذج لهذا الوجه ففي قوله تعالى: " إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ"، أي: فيما قلتم من أنَّكم تقدرون على معارضته، ويؤيِّد هذا القول ما حكي عنهم في آية أخرى: " لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا" [الأنفال: 31] ، وفي قوله جل وعلا: "وَلَنْ تَفْعَلُوا": إِثَارةٌ لِهِمَمِهِمْ، وتحريكٌ لنفوسهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن"[1].

وفي وعد الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فسيكفيكهم الله) قال الثعالبي : " ثم وعده تعالى أنه سيكفيه إياهم، ويغلبه عليهم، فكان ذلك في قَتْل بني قَيْنُقَاعَ، وبني قريظة، وإجلاء النَّضِير، وهذا الوَعْدُ وانتجازه من أعلام نبوّة نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلم"[2]. وهو بيِّـــنٌ في كونه من الأمور المغيبة التي حققها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ ...) الآية: قال الثعالبي هذه الآية تضمنت الإعلام بغيب[3].

ومن النماذج التي ذكرها لوجه إعجاز القرآن الكريم من جهة الغيوب قول الله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (76) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) قال الثعالبي: "ثم نبّه تعالى- على أنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيل أكثر الأشياءِ التي كان بينهُم اختلافٌ في صِفَتِها، جاء بها القرآن على وجهها، (وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)[4]، وقوله تعالى: (وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ ...) الآية، أي: ما كنتَ يا محمدُ حاضراً لِهذهِ الغُيوبِ الَّتي تُخْبِرُهمْ بِهَا، وَلَكِنَّهَا صَارَتْ إِلَيْكَ بِوَحْيِنَا، أي: فكان الواجِبُ أن يسارعوا إلى الإيمان بك[5].

ومنها: وقوله تعالى: لَرَادُّكَ إِلى مَعادٍ قال الجمهور: معناه: لرادك إلى الآخرة، أي: باعِثُكَ بعد الموت، وقال ابن عباس وغيره: المعاد: الجنة، وقال ابن عباس أيضا ومجاهد: المعادُ: مكة، وفي البخاري بسنده عن ابن عباس: لَرَادُّكَ إِلى مَعادٍ: إلى مكة، انتهى. وهذه الآية نزلت بالْجُحْفَةِ كما تقدَّم، والمعاد: الموضع الذي يعاد إليه[6].

وقوله تعالى: (فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ) يريدُ: التوراة والإنجيل كانوا في وقت نزول الكتاب عليهم يؤمنون بالقرآن، ثم أخبر عن معاصري نبينا محمد صلى الله عليه وسلّم أن منهم أيضاً مَنْ يؤمن به ولم يكونوا آمنوا بَعْدُ، ففي هذا إخبارٌ بغيب بَيَّنَه الوجودُ بَعْدَ ذلك[7].

وفي قوله تعالى: (جُنْدٌ مَّا هُنالِكَ مَهْزُومٌ): وقال مجاهد: الإشارةُ ب «هنالكَ» إلى يوم بدر، وهي من الأمورِ المغَيَّبَةِ أُخْبِرَ بها عليه السلام[8]، وفي تفسير قوله تعالى: (لا يمسُّه إلا المطهرون) = وقال بعض المتأولين: أراد بالكتاب مصاحِفَ المسلمين، ولم تكن يومئذ، فهو إخبار بغيب مضمنه النهي، فلا يَمَسُّ المصحفَ من بني آدم إلاَّ الطاهرُ من الكفر والحَدَثِ[9].

---

[1] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (1/ 55)
[2] – المصدر نفسه، (1/ 140)
[3] – المصدر نفسه، (3/ 229)
[4] – المصدر نفسه، (3/ 262)
[5] – المصدر نفسه، (277/3)
[6] – المصدر نفسه، (290/3)
[7] – ا المصدر نفسه، (3/ ص301- 302)
[8] – المصدر نفسه، (4/ص 48)
[9] – المصدر نفسه، (4/ص 355)

ومثل ذلك في قوله سبحانه: سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ قال قتادة وغيره: هم هوازن وَمَنْ حارب النبيّ عليه السَّلام يومَ حُنَيْنٍ، وقال الزُّهْرِيُّ وغيره: هم أهل الرِّدَّةِ وبنو حنيفة باليمامة، وحكى الثعلبيُّ عن رافع بن خديج أَنَّهُ قال: واللَّهِ لقد كُنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى، ولا نعلم مَنْ هم حَتَّى دعا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أَنَّهُمْ هم المراد، وقيل: هم فارس والروم...، وهذه الآية إخبار بمغيب فهي من معجزات النبي صلّى الله عليه وسلّم، انتهى من «الأحكام» .[1].

وكذلك عند قوله سبحانه: (فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) فقال المِنْهَالُ والسُّدِّيُّ وجماعةٌ: هو وَعْدٌ بما يفتحه اللَّه على رسوله من الأقطارِ حَوْلَ مَكَّةَ، وفي غيرِ ذَلِكَ مِنَ الأَرْضِ كخَيْبَرَ ونحوها وَفِي أَنْفُسِهِمْ: أراد به فَتْحَ مَكَّةَ قال ابن عطية: وهذا تأويلٌ حَسَنٌ، يتضمَّن الإعلام بِغَيْبٍ ظَهَرَ بَعْدَ ذلك[2]

وقد ذكر الثعالبي منبها أن الإخبار بالغيب وقع من جهتي الماضي والمستقبل ففي قوله تعالى : (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ) الآية: والتحدِّي في هذه الآية عند الجُمْهُور وقَعَ بجهتَيِ الإعجاز اللَّتَيْنِ في القرآنِ:

إِحْداهما: النَّظْم والرَّصْف والإيجازُ وَالجَزَالَة، كلُّ ذلك في التعريف.

والأُخرَى: المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى، ولما يُسْتَقْبَلُ." [3]. فقد جعل الإخبار بالغيب على مرتبتين **مرتبة الغيب الماضي، ومرتبة الغيب المستقبل، وكلاهما مما يعزب عن علم الناس حينها**.

ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم التي ذكرها الثعالبي في هذه القطعة والتي قلَّ من نبه إليها وهي هذا الطول الذي تميز به القرآن، ووجد ذلك أنه مع طوله لم تختل بلاغته ولا سقطت أنباؤه وتشريعاته[4]، ولذلك حينما تقع مقارنة القرآن بغيره من الكلام والذي من أعظمه الشعر الجاهلي يطهر تفوق القرآن الكريم من هذه الجهة، فهو على طوله لا ينبو عن الصدق ولا تضعف بلاغته ولا تخبو.

وأما إعجاز القرآن الكريم من جهة بلاغته وهو الوجه الذي يمكننا القول بأن كلمة العلماء اتفقت على الاعتداد به إلا من فتنه القول بالصرفة ممن جرفه سيل النظام وأتباع النظام، فنجد الثعالبي عند قول الله تعالى:" قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ...) الآية: يقول: "والتحدِّي في هذه الآية عند الجُمْهُور وقَعَ بجهتَيِ الإعجاز اللَّتَيْنِ في القرآنِ:

إِحْداهما: النَّظْم والرَّصْف والإيجازُ وَالجَزَالَة، كلُّ ذلك في التعريف.

والأُخرَى: المعاني مِنَ الغَيْبِ لِمَا مَضَى، ولما يُسْتَقْبَلُ.

وحين تحدَّاهم ب «عَشْرٍ مفترياتٍ» إنما تحدَّاهم بالنَّظْم وحْده، ثم قال: هذا قول جماعة المتكلِّمين، ثم اختار أنَّ الإعجاز في الآيتين إنما وقع في النَّظْمِ لا في الإخبارِ بالغُيُوبِ، ت: والصوابُ ما تَقَدَّم للجمهور، وإليه رَجَعَ في «سورة هود» وأوجُهُ إعجاز القرآن أَكْثَرُ من هذا وانظر «الشِّفَا» "[5].

---

[1] – المصدر نفسه، (4/ص 204)

[2] – الجواهر الحسان للثعالبي، (4/ 132)

[3] – ا المصدر نفسه، (2/ 248)

[4] – وقد أشار إلى ذلك الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن بقوله: "ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر". يُنظر كتابه إعجاز القرآن [ص: 69].

[5] – الجواهر الحسان، للثعالبي، (2/ 238-239).

وفي قول الله سبحانه (وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ ...) الآية الذينَ وصَّلَ لَهُمُ القَوْلَ: همْ قريشٌ قاله مجاهد وغيره، قال الجمهورُ: والمعنى: وَاصَلْنَا لهم في القرآن، وتابعناه موصولاً بعضُه ببعضٍ في المواعظ والزواجر، والدعاء، إلى الإسلام، وذهبت فرقةٌ إلى: أنَّ الإشارة بتوصيلِ القولِ إنما هي إلى الألفاظ، فالمعنى: ولقد وصَّلنا لهم قَوْلاً معجزا دالّا على نبوتك[1]، وفي قوله تعالى: (قُرْآناً عَجَباً): معناه: ذَا عَجَبٍ لأن العَجَبَ مصدرٌ يقعُ من سَامِعِ القرآن لبراعتِه وفصاحتِه ومُضَمَّناتِه[2].

ومن جملة ما نبه إليه الثعالبي في بلاغة القرآن أنه على طوله لم تتخلف البلاغة عن آياته ففي قوله تعالى عن القرآن الكريم : (مُتَشابِهاً): قال الثعالبي: "معناه مُسْتَوِياً لا تَنَاقُضَ فيه ولا تَدَافُعَ، بل يُشْبِهُ بَعْضُهُ بعضاً في رَصْفِ اللَّفْظِ، ووَثَاقَةِ البراهينِ، وشَرَفِ المعاني إذْ هِيَ اليَقِينُ في العقائدِ في اللَّهِ وصفاته وأفعاله وشرعه، ومَثانِيَ معناه: مَوْضِعُ تَثْنِيَةٍ للقصَصِ والأقضيةِ والمَوَاعِظِ تثنى فيهِ ولاَ تُمَلُّ مَع ذلك ولا يَعْرِضُهَا ما يَعْرِضُ الحديثَ المعَادَ"[3].

ومن مظاهر الإعجاز بالبلاغة القرآنية **التكرار** الواقع في بعض سوره وآياته ففي تفسير سورة الرحمن قال الثعالبي: "وكَرَّرَ سبحانه قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ تأكيداً وتنبيهاً للنفوس، وتحريكاً لها، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب اللَّه في مواضع وفي حديث النبي صلّى الله عليه وسلّم، وفي كلام العرب، وذهب قوم إلى أَنَّ هذا التكرار إنَّما هو لما اختلفت النعم المذكورة كَرَّرَ التوقيفَ مع كُلِّ واحدة منها، قال ابن عطية : وهذا حسَنٌ، وقال الحُسَيْنُ بْنُ الفَضْلِ: التكرار لِطَرْدِ الغَفْلَةِ، وللتأكيد[4]

ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم عند الثعالبي عزّة القرآن الكريم ومن عزته أنه ما يقع به العوج فقد ذكر الثعالبي: في قوله تعالى (ولم يجعل له عِوجاً) قال: "ونَفَى اللَّهُ سبحانه عن القرآن العِوَجَ لأَنَّهُ لا اخْتِلاَفَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا مغمز بوجه[5]

وقال كذلك: ووصفَ اللَّه تعالى الكتابَ بالعِزَّةِ لأنه بصحة معانيه مُمْتَنِعٌ الطَّعْنُ فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من اللَّه تعالى قال ابن عباس: معناه: كريمٌ على اللَّه تعالى[6] .

ومن وجوه عزته ثقله على المنافقين والكافرين قال الثعالبي في قوله تعالى (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا): وقيل: لِثِقَلِهِ على الكفارِ والمنافقينَ بإعْجَازِه ووَعْدِه ووعيدِه ونحو ذلك[7].

ومن الوجوه التي ذكرت في وجوه إعجاز القرآن الكريم ما نقله الثعالبي عن ابن عطية قوله: يُسِّرَ بما فيه من حُسْنِ النظم وشَرَفِ المعاني، فله حلاوةٌ في القلوب، وامتزاجٌ بالعقول السليمة[8]. وهذه أوصاف اختص به القرآن عن سائر الكلام.

ويبدو ان الثعالبي يرى رأي من يقول بأن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم لا تقع على حد ونجد ذلك في قوله لما ذكر جملة من وجوه إعجاز القرآن الكريم قال: " وأوجُهُ إعجاز القرآن أَكْثَرُ من هذا وانظر «الشِّفَا» "[1]. ففي هذا النص ما يدلنا ولو بالإشارة أن الثعالبي ممن يرى أن وجوه إعجاز القرآن كثيرة جدا، أو أنها لا تقع على عدٍّ، هو ما يراه كثير من العلماء كالسيوطي وغيره.

---

[1] – ا المصدر نفسه، (3/ 279)
[2] – المصدر نفسه، (4/ 487)
[3] – الجواهر الحسان للثعالبي، (4/ 77)
[4] – المصدر نفسه، (4/ 332).
[5] – المصدر نفسه، (4/ 79)
[6] – المصدر نفسه، (4/ 127)
[7] – المصدر نفسه، (4/ 497)
[8] – المصدر نفسه، (4/ 322)

المعجزات الحسية:

من جملة ما يعرض للبحث لدى علماء الإعجاز في ثنايا ذكر وجوه إعجاز القرآن الكريم، الحديث عن المعجزات الحسية التي وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم مما لم تجر به العادة، ويكون من براهين نبوته وأعلامها، وقد وقع له عليه الصلاة والسلام جملة غير قليلة من ذلكم، وقد شهدها الجمع الغفير ونقلت كذلك نقلا يبلغ بها حدَّ التواتر، وكان الثعالبي ممن نبه على تلكم المعجزات الحسية في تضاعيف تفسيره، وفي المناسبات التي تقتضي ذكر مثل تلك المعجزات كبراهين لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد ذكر ما كان من تكثير الماء ي الحديبية، قال الثعالبي: " وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه، وثاب الماء حتى كَفَى الجيش[2].

ومن جملة ذلك ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الفاضلة التي تقضي بأنه نبي حقٌّ ورسولٌ صدقٌ، فقد ذكر الثعالبي عن حديثا عن أخلاقه صلى الله عليه وسلم لما قال: " وهذه كانت أخلاق نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم، لا يقابل أحداً بمكروهٍ، وإنما يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا» من غير تعيينٍ، وبالجملة فكلُّ خَصْلة حميدةٍ مذكُورَةٍ في القُرآنَ اتّصف بها الأنبياء والأصفياء، فقد تصف بها نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، إذ كان خلقه القرآن، كما روته عائشةُ في الصحيحِ[3]، وكما ذكر اللَّه سبحانه: (أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ) [الأنعام: 90] انتهى"[4].

كما أشار إلى ذلك في تفسير قوله تعالى: (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ) قال الثعالبي المعنى: ألم يعرفوا صدقه وأمانته مدَّةَ عمره صلّى الله عليه وسلّم[5].

هذا الذي وقفت عليه مما يتعلق بالمعجزات الحسية وقد اعتنى بها المؤلفون في مجال أعلام النبوة ودلائلها، كالبيهقي والجوزجاني وأبي نعيم الأصبهاني والماوردي وغيرهم [6]، والثعالبي نفسه له كتاب الأنوار في معجزات النبي المختار.

من مصادره في الإعجاز:

ومما يتعلق بدرس إعجاز القرآن الكريم في تفسير الجواهر الحسان للثعالبي قضية المصادر التي استمد منها الثعالبي معارفه وكان روافده في قضايا إعجاز القرآن في تفسيره جملة من التفاسير والكتب الخاصة بمعجزات النبوة استقلالا أو ضمنا، فإن الثعالبي قد استعان بجملة من الكتب التي تضمنت مسألة إعجاز القرآن الكريم وقضاياه، فمن التفاسير مثلا:

تفسير الطبري فإنه من مصادر الكبيرة فإنه قد أشار الثعالبي في مقدمته بأنه أخذ عن الطبري بواسطة ما اختصره أبو عبد الله اللخمي منه قال الثعالبي: "وما انفردت بنقله عن الطبريّ، فمن اختصار الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللّخميّ

---

[1] – المصدر نفسه، (2/ 238-239).

[2] – المصدر نفسه، (4/ 235)

[3] – يقصد قولها رضي الله عنها لما سئلت عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، كما في مسند الإمام احمد بن حنبل عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: " كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4] "، [أخرجه أحمد في مسند عائشة رضي الله عنها برقم: 24601].

[4] – الجواهر، (328/2)

5 – المصدر نفسه، (3/ 156)

6 – وقد ذكرت ثبت المؤلفات في دلائل النبوة في رسالتي للدكتوراه من بداية القرن الثالث الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري، ينظر منها الفصل الثاني [ص 103- 110]

النحويّ لتفسير الطبريّ- نقلت لأنه اعتنى بتهذيبه، وقد أطنب أبو بكر بن الخطيب في حسن الثناء على الطبري ومدح تفسيره، وأثنى عليه غاية نسأل الله تعالى أن يعاملنا وإياهم برحمته"[1].

وقد نبه الثعالبي تنبيها مهما لقارئ تفسيره حين يصادف نقلا من مختصر الطبري المذكور فقال: "ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر، فليراجع الأمّهات المنقول منها، فليصلحه منها، ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزّلل من حيث لا يشعر"؛ وهذا منهج قائم على النصيحة في التعامل مع كتب الأئمة والعلماء عند النقل عنهم وصيانة كتبهم عن التصرف فيها من غير تثبت واحتراز ومراجعة.

ومن مراجعه كذلك تفسير ابن عطية المحرر الوجيز، فإن الثعالبي أخبر في المقدمة بما مفاده أن رافده الأول هو تفسير ابن عطية فهو يعُدُّ تفسيره كالمختصر لتفسير ابن عطية فقد قال في مقدمة تفسيره عن تفسيره: " ...فقد ضمّنته بحمد الله المهمّ مما اشتمل عليه تفسير ابن عطيّة، وزدتّه فوائد جمّة"[2].

كذلك أفاد الثعالبي من جملة كبيرة من التفاسير جاوز عدُّها المائة لم يتسن له المقام أن يذكرها بجملتها لكثرتها وإنما أخذنا ذلك من قوله في المقدمة على تفسيره: " من غيره من كتب الأئمّة، وثقات أعلام هذه الأمّة، حسبما رأيته أو روّيته عن الأثبات، وذلك قريب **من مائة تأليف**، وما منها تأليف إلا وهو منسوب لإمام مشهور بالدين، ومعدود في المحقّقين، وكلّ من نقلت عنه من المفسّرين شيئا فمن تأليفه نقلت، وعلى لفظ صاحبه عوّلت، ولم أنقل شيئا من ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزّلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أغزوها إليه" ونلاحظ في كلامه إشارة إلى كيفية نقله عن تلكم الكتب وأنه كان بألفاظ أصحابه ولا يذكرها بالمعنى خوف الوقوع في الزلل.

أما الكتب الخاصة فأهمها كتاب القاضي عياض الشفا في حقوق المصطفى، فإنه كثير النقل عنه خاصة ما يتعلق بقضايا السيرة والشمائل والخصائص، ومسائل إعجاز القرآن الكريم، ومن أهم المسائل المتعلقة في الإعجاز والتي نقلها الثعالبي عن القاضي عياض، ما يتعلق ببحث قصة الغرانيق في تفسير آية الحج وهي قوله سبحانه: (وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، ينظر من التفسير [4/129-133]

ومن الكتب الخاصة كذلك التي نقل منها الثعالبي كتاب: حسن بن عليّ بن عبد المَلِكِ الرّهونيّ المعروفِ بابْنِ القَطَّان، قال عنه الثعالبي: "وهو كتابٌ نفيسٌ جِدًّا ألَّفه في معجزات النبيّ صلّى الله عليه وسلم وآيات نبوءته"[3]. ، ومما يتعلق بالإعجاز فيما نقله عنه قصة الراهب مع أبي بكر رضي الله عنه وفيها: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، وَإِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَآمِنْ بِاللَّهِ، فَقُلْتُ وَمَا دَلِيلُكَ؟ قَالَ: الشَّيْخُ الرَّاهِبُ الَّذِي لَقِيتَهُ بِاليَمَنِ، قُلْتُ: وَكَمْ مِنْ شَيْخٍ لَقِيتُ! قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ أُرِيدُ، إِنَّمَا أُرِيدُ الشَّيْخَ الَّذِي أَفَادَكَ الأَبْيَاتَ، قُلْتُ: وَمَنْ أَخْبَرَكَ بِهَا؟ قَالَ: الرُّوحُ الأَمِينُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي الأَنْبِيَاءَ قَبْلِي، قُلْتُ: مُدَّ يَمِينَكَ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فانصرفت وَمَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا أَشَدُّ مِنْ رسول الله صلّى الله عليه وسلم فَرَحاً بِإِسْلاَمِي» يُنظر تمام القصة من التفسير: [1/319-320] ،

1 - الجواهر الحسان للثعالبي، (1/ 118)
2 - المصدر نفسه، (1/ 117)
3 - الجواهر (1/ 279)

وفي إفادة الثعالبي من الكتابين السابقين قال محقق التفسير في مقدمته الدراسية: "سادسا: كتب الخصائص والشمائل = اعتمد الثعالبي في «الجواهر الحسان» في هذا الفن على كتاب القاضي عياض، والمسمى ب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، وكذلك كتاب «الآيات والمعجزات» لابن القطّان"[1].

ومن الكتب الخاصة كذلك كتاب دلائل النبوة للبيهقي وقد نقل عنه في مواضع كثيرة جدا يُنظر تفسير الثعالبي [319/1، 305/5، ...]، وقد فات محقق التفسير أن يذكر هذا الكتاب في جملة كتب الخصائص والشمائل في حديثه عن مصادر تفسير الثعالبي التي خصها بالدراسة.

ومع ان للثعالبي كتابا في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب مشارق الأنوار في معجزات المختار، لكنه لم ينقل عنه، والذي يظهر أنه ألفه بعد تفسيره هذا وإلا لنقل منه أو أشار إليه، فلما لم يكن شيء من ذلك ترجح أنه إنما ألفه بعد تفسيره والله اعلم.

فهذه بعض المصادر التي كانت للثعالبي روافد في حديثه عن إعجاز القرآن الكريم في تفسيره الجواهر الحسان .

المطلب السادس: شبهات حول القرآن:

من القضايا التي تأتي مقارنة لحديث إعجاز القرآن ما يتعلق بشبه المشككين في الوحي وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى وذلك مذ أنزل الله كتابه على نبيه عليه الصلاة والسلام وكرّمه الله برسالته واصطفاه للبلاغ.

ومما امتاز به تفسير الثعالبي مما له علاقة بهذا الجانب أنه لم يخلِ تفسيره من الدفاع عن القرآن الكريم والذود عنه من شبهات المشبهين الذين يرومون لبس الحق بالباطل وإطفاء نور الله الذي شرّف به نبيه عليه الصلاة والسلام، وهذه بعض النماذج التي صادفتها في تفسير الثعالبي:

أولا: قصة الغرانيق

وقد جاء لها ذكر في محلها التي تذكر فيه في غالب كتب التفسير في سورة الحج عند قول الله سبحانه (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) [النجم: 19، 20]: وقول نقل في ذلك عن القاضي عياض من شفائه قوله في الآية: "وقد توجهت هاهنا لبعض الطاعنين سُؤَالاتٍ منها ما رُوِيَ مِنْ: «أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم لما قرأ سورة «والنجم» وقال: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى [النجم: 19، 20] قال: تِلْكَ الغرانيق العلى، وإنّ شفاعتها لترتجى»، قال عياض: اعلم (أكرمك الله) أَنَّ لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: في توهين أصله.

والثاني: على تقدير تسليمه.

أما المأخذ الأَوَّلُ: فيكفيك أنَّ هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولاَ رَوَاهُ ثقة بسند مُتَّصِلٍ سليم وإنما أولع به وبمثله المفَسِّرُون والمؤرِّخُونَ المولَعُونَ بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، .....،

ثم قال القاضي عياض: وقد أعاذنا الله من صِحَّتِهِ، وقد حكى موسى بن عقبة في «مغازيه» نحوَ هذا، وقال: إنَّ المسلمين لم يسمعوها، وإنما ألقى الشيطانُ ذلك في أسماع المشركين، ومعنى قوله تعالى: تَمَنَّى أي: تلا ومنه قوله تعالى: (لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ) أي: تلاوة، فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطانُ أي: يُذْهِبُهُ، ويزيل اللبس به ويُحكمُ آياته، وعبارة البخاريِّ: وقال ابن عباس: إذا تَمَنَّى أَلْقَى

1 – المصدر نفسه، (1/ 96)

الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ، أي: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم آياته، ويقال: أُمْنِيَّتِهِ: قراءته؛ قال عياض: وقيل: معنى الآية هو ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلّم من السهو إذا قرأ فيتنبه لذلك، ويرجعُ عنه، انتهى."

فإن الثعالبي نقل مقرا جواب القاضي مستحسنا له في ردّ قصة الغرانيق نمن الوجهين، من وجه عدم الصحة، ومن وجه القول بالصحة فإن ذلك محمول على معنى مناسب كأن يكون المعنى " السهو" أو نحو ذلك من المعاني التي تليق بهذا السياق القرآني وتناسبه.

ثانيا: الأحرف السبعة

ومن القضايا الشائكة في القرآن الكريم نزوله على سبعة أحرف وللعلماء في ذلك كلام طويل وقد أفردت المسألة بتواليف مفردة[1]، ولقد جرى للثعالبي في تفسيره حديث عن الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم، على أن ذلك مظهر من مظاهر إعجاز القرآن الكريم، وذلك قوله: " فأباح الله تعالى لنبيه عليه السلام هذه الحروف السبعة، وعارضه بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز، وجودة الرّصف، ولم تقع الإباحة في قوله: (فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ) [المزمل: 20]؛ بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات، جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا، لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضا أن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليوسّع بها على أمته، فقرأ مرة لأبيّ بما عارضه به جبريل، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضا، وفي صحيح البخاريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتّى انتهى إلى سبعة أحرف» [2] .

ثالثا: اتهام القرآن الكريم بأنه سحر أو أنه من قبل محمد صلى الله عليه وسلم

فإن القرآن الكريم منذ انزله الله سبحانه وتعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام وأعداؤه لا يفتؤون يتخرصون القول تجاه ورميه بالتهم المتنوعة طمعا في إطفاء نور الله الذي أنزله على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم، فتارة يقولون عنه بأنه سحر مفترى، وأخرى أنه أساطير الأولين، وتارة بأنه قول كاهن وقد تولى القرآن نفسه نفي هذه الفِرى عنه وقد أشار إلى ذلك الثعالبي عند تفسير قوله تعالى: (فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) فقال: " ثم وبخهم سبحانه بقوله: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) لأنهم بعد التدبر والنظر الفاسد قال بعضهم: شِعْرٌ، وبعضهم: سحر وغير ذلك، أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين أي: ليس بِبِدْعٍ بل قد جاء آباءهم الأَوَّلِينَ، وهم سالف الأمم الرُّسُلُ كنوح، وإبراهيم، وإسماعيلَ وغيرهم، وفي هذا التأويل من التَّجَوُّزِ أَنَّ جَعْلَ سالف الأمم، آباء إذِ الناس في الجملة آخِرُهم من أَوَّلِهِم[3].

وفي قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ ...)، قال الثعالبي: (وهذه الآيةُ ردٌّ على كُفَّارِ قُرَيْشٍ في قَوْلهم: إنَّ القُرْآن مِن تلقاءِ مُحَمَّدٍ)[4].

---

1 – ومن ذلك: الأحرف السبعة للقرآن الكريم لأبي عمرو الدّاني(444هـ)، الأحرف السبعة التي نزل بها القران الكريم تأليف: الامام زين بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليهم السلام دراسة وتحقيق: الدكتور حسن محمد تقي الحكيم، معاني الأحرف السبعة ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي (ت 454 هـ)، القرآن والقراءات والأحرف السبعة لعبد الغفور محمود مصطفى جعفر(1425هـ)، حديث الأحرف السبعة: لعبدالعزيز بن عبدالفتاح القارئ، الأحرف القرآنية السبعة :الدكتور عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، بحث حول نزول القرآن على سبعة أحرف وبعض مطاعن جولد تسهير عفاف علي شكري، نزول القرآن على سبعة أحرف الشيخ مناع بن خليل القطان (ت 1420)، الأحرف السبعة ومنزلة القراءات منها الدكتور حسن ضياء الدين عتر (ت 1432).

2 – الجواهر الحسان للثعالبي، (1/ 24).

3 – المصدر نفسه، (3/ 156).

4 – المصدر نفسه، (3/ 245)

وقد نبه الثعالبي إلى تنزيه القرآن عن ما نُسب إليه من أنه شعرٌ أو انه من سجعٌ من كلام الكهان وذكر ذلك في تأويل قوله تعالى عن آيات القرآن الكريم بأنها فصِّلت، فقال في بعض أوجه تأويلها: "وقيل: فُصِّلَتْ بالمواقف وأنواعٍ أَوَاخِرِ الآيِ، ولم يكن يرجعُ إلى قافية ونَحْوِها كالسَّجْعِ والشِّعْرِ[1].

ومن مسالك الثعالبي في دفاعه عن القرآن الكريم بيان ما حواه من شرائع وعقائد وحدود تدلُّ في جملتها وتفصيلها بأن القرآن من عند الله لما كانت عليه من الحُسن والرشد والبيان، ففي قوله سبحانه: (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنزل إليكم منْ ربكم) قال: "معناه: أن القرآن العزيزَ تضمَّنَ عقائدَ نيرةً وأوامرَ ونواهيَ مَنْجِيَةً وَعِدَاتٍ على الطاعاتِ، والبِرِّ، وتضمَّن أيضاً حدوداً على المعاصِي وَوَعِيداً على بَعْضِها فالأحسنُ للمرءِ أنْ يسلك طَرِيق الطاعةِ والانتهاءِ عن المعصيةِ والعفوِ في الأمورِ ونحوِ ذلك مِنْ أنْ يسلكَ طريقَ الغَفْلَةِ والمعصيةِ فَيُحَدُّ أو يَقَعَ تَحْتَ الوعيدِ، فهذا المعنى هو المقصود ب أَحْسَنَ، وليس المعنى: أنَّ بعضَ القرآن أحْسَنُ مِنْ بَعْضٍ منْ حيثُ هو قرآن"[2].

فهذه بعض النماذج من جهود الثعالبي في الدفاع عن القرآن الكريم وردّ الشبهات التي أثيرت وتثار حوله قصد إطفاء نوره ولكن هيهات هيهات وصدق الله إذ يقول: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) [التوبة 32].

خاتمة:

وفي خاتمة هذا المقام يظهر لنا من النتائج: أن الثعالبي كانت له عناية بموضع إعجاز القرآن الكريم وذلك من خلال أهم قضاياه من جهة التعريف بماهيته والحديث عن قيود التعريف الذي ذكره المتكلمون لإعجاز القرآن، ثم بيان الأوجه التي ذكرها العلماء في مظاهر إعجاز القرآن الكريم ويظهر أن الثعالبي ممن يرى أن وجوه الإعجاز لا تقف عند عدٍّ وإنما يُذكر منها ما يلزم ذكره لبيان الجهة التي كان بها القرآن معجزا، ثم ما كان من الثعالبي من عناية بالدفاع عن القرآن الكريم من الشبهات لتي أثيرت حوله ومحاولته الجواب عن ذلك انتصارا للقرآن الكريم من أقوال الأفاكين

وأما ما يتعلق بالتوصيات التي عنّت لي من خلال هذا البحث:

1/ التوسع في دراسة قضية إعجاز القرآن الكريم من خلال آثار الثعالبي خاصة وأن له مصنفا قد طبع بأخرةٍ فيما يتعلق بمعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم.

2/ تسليط الضوء على جهود الثعالبي في تفسيره في جوانب علمية أخرى مثل القضايا اللغوية، ومسائل الزهد والتصوف، والمادة الحديثية في التفسير، وبحث استدراكات الثعالبي على ابن عطية الذي يعدُّ المصدر الأول له ورافده التفسيري الأكبر.

قائمة المراجع والمصادر:

1. الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ/ 1974 م.
2. الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م.

[1] – المصدر نفسه، (4/ 111)

[2] – ا المصدر نفسه، (4/ 85).

3. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ)، المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ.
4. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، المؤلف: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: 544هـ)، الناشر: دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية - 1407 هـ.
5. عبد الرحمن الثعالبي ومنهجه في التفسير" كتبها عبد الحق عبد الدائم سيف القاضي، وهي رسالة ماجستير مرقونة على الآلة الكاتبة بإشراف د. عبد الفتاح سلامة بالجامعة الإسلامية سنة 1405هـ.
6. مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
7. مصادر علم إعجاز القرآن التأسيسية، حتى نهاية القرن الخامس الهجري، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه علوم في اللغة العربية والدراسات القرآنية، من إعداد الطالب: عبد المطلب بوغرارة، إشراف الأستاذ الدكتور: رابح دوب، العام الدراسي: 2016-2017م.
8. مُعجَمُ أعلام الجزائِر - مِن صَدر الإسلام حَتّى العَصر الحَاضِر، المؤلف: عادل نويهض، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، 1400 هـ - 1980 م.
9. معجم المفسرين «من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر»، المؤلف: عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1409 هـ - 1988 م.
10. نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المؤلف: أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني، أبو العباس (المتوفى: 1036 هـ)، عناية وتقديم: الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة، الناشر: دار الكاتب، طرابلس – ليبيا، الطبعة: الثانية، 2000.